

ومثل ذلك رؤية الدكتور خورشيد الظلام من خلال عيني الشيخ ، « فلا يرى سوى أشباح الأشياء تنصب فوق أرضية سوداء ، يخفف من سوادها شيئاً ما ذلك الضوء الرمادي المبهم ، الذي ينتشر ما بين الأرض والسماء ، كذرات منهمة من النجوم البعيدة الخرساء » ، فهذا التشبيه الرائع الرائق ، لا يتأتى لشخصية الشيخ ، ولكن يتأتى لشخصية الدكتور عبدالله خورشيد ! على أن الشيخ آنذاك كان في داره ، وكان قد أغلق رتاج الباب ، بعد خروج آخر المعزين ، ولم يكن الشيخ أمام مشهد السماء .

والواقعة النفسية غير متحققة كذلك ، في اللقطة التي هم فيها الشيخ « أن يعيد فتح الرتاج . أحس أنه أتى عملاً عاقباً جافياً ، شعر كأنما يغلق الباب في وجه شخص عزيز ، لم يعد له حق الدخول من هذا الباب » ، فهذه لقطة لشعور دقيق رقيق ، ضاغط وناغم معاً ، وبمثل هذه اللقطة يتحطم البعد النفسي لبطل القصة ونتذكر المؤلف أكثر مما نتذكر بطله .

ومثل ذلك هذه الصورة الذهنية ، التي تراءت للشيخ : « رائحة ثقيلة كدخان غير مرئي .. وكأننا من خلال هذه الرائحة نفسها ، لا من خلال الباب ، خرج الجراح هابساً » ، ففي مثل هذا يبدو أن تسرب الذات لم يتم بصورة مبررة مشروعة . فمشارع المؤلف ولقطاته تراحم الشيخ في حياته الأدبية فتزحمه .

إنني أومن - في حدود الأدب الموضوعي - بتناسخ الأرواح ، ولقد كان تناسخ الأرواح يقضي بأن تحمل روح الدكتور عبد الله خورشيد في بدن الشيخ ، ثم لا تقول هذه الروح ولا تفعل إلا ما يتوقع أو يفهم من الشيخ ، في حدود أبعاده الجسمية والاجتماعية والنفسية المتكاملة .

غير أن الشواهد عديدة على احترام المؤلف أبعاد شخصية البطل ، بالإضافة إلى ما أسلفته ، ولعل خير شاهد على ذلك هو تصوير الايمان المذعن العميق ، وطيف الايمان الدائم الرقيق ، في قلب الشيخ وقد حضرته الصلاة : « هل يتخلف عنها اليوم ؟ بوده لو راح ، ولكن هل يستطيع أن يعيش ؟ .. فليصل »